الإيمان المسيحي والحاد اليوم

بقلم الأب اغناطيوس عبده خليفه اليسوعي

عالمنا في تغيّر جذري . نشهد اليوم ولادة عالم جديد . فالمفاهيم تتبدّل وطرق الحياة تتقلّب وتفكير الإنسان يتحرّر من تقاليد اثقلته فيعود من دنيا الماورائي الى دنيا الاختبار حيث تنتفي أعماره وحيث الألم والفرح وحيث الجوع واللذة والموت .

دنيا الاختبار ، دنيا العلم والتقنيّة ، دنيا الاكتشافات حيث عقل الانسان سيّد ولا سيّد إلاّه . ولم التوق الى ما وراء الآفاق الانسانية ولم اللجوء الى الاسرار ولم الفزع الى الله ؟

كان إنسان البارحة يتوق الى الاستقلال الذاتي ، الى الحرية المطلقة التي تميّزه . وكانت صلاته العائلية والمهنيّة تكوّن أعظم أوقات حياته . له نفسانيّة لا يدخلها أحد ولا يُعرف منها شيء ما لم يتنازل الانسان ويُعطي في ذكرياته تحليلاً عمّا يختلج به قلبه من اشواق وتوق وأمل وتقلّبات عاطفية وطموح الى الله . وفي خدمة هذا الانسان كان المجتمع . ولطالما سمعنا الكتّاب والفلاسفة والوعّاظ يتكلمون على كرامة الشخص البشري وضرورة احترامه وقيمته اذ كُوِّن على وجه الخالق الذي يراه بعطف لا يعلوه عطف .

امّا انسان اليوم فيعيش خارج نفسانيّته . شخصيّة لا يتملك عليها الاّ في صلته بغيره . ولن يكون لإنسان اليوم من وجود ما لم يتعرّف على غيره ويلصق به . فهو لا يعيش في استقلال ولكن في نسبيّة الى غيره والابعاد الاجتماعية هي من صلب شخصية انسان اليوم وانسان الغد . فانها اساسية لتكوينه . فلن نستطيع بعد اليوم ان نقول ان الانسان شخص

يُخدم . انما علينا ان نقول إنه عضو في مجتمع يتكاتف مع اخيه الانسان لصالح الجميع .

فبينا تتحوّل العقلية على هذا الشكل ، وبينا الانسان يكتشف نفسه قوياً بالتكاتف مع اخيه الانسان . وبينا يعلم بالاختبار اليومي ان بوسعه ان يخدم أخاه الإنسان دون عودة مستمرّة الى قوة علويّة سرمدية لا يراها ولا يعلم عنها الاّ ما علمه اياه الوحي والكنيسة فيقوم انسان اليوم الى الدعوة القائلة ان الانسان مخلّص اخيه الانسان وان الانسان ربّ الكون وأن على الله ان يموت ليعيش الانسان ، اذ لن يحيا الانسان ما لم يمت الله . هذا ما يسمّيه بعض لاهوتيي هذا العصر بلاهوت موت الله . انتصر هذه الفكرة الملحدة : اول من انتصر ، الفيلسوف الالماني نيتشه وبعده الكاتب الفرنسي سارتر وجانسن وغيرهم تسندهم بعض الحركات الاجتماعية القويّة كالشيوعيّة ومن انتمى اليها والى افكارها وقوانينها من الحركات الاجتماعية التي تدين بالفكرة التالية : يجب ان يعيش الانسان من الخبز لا من افكار وعقائد وان ستّت : يجب ان يكون له في هذه الارض المأوى والمسكن والعيش واللباس ولا يتوق الى غير ذلك . وما عدا ذلك فهو أفكار يجب بترها وهدمها والتخلي عنها . قرون مضت كان فيها الانسان عابداً ومعفّراً الجبين امام الالوهية وها هو اليوم يجوع ويعطش ويموت فلم ينفعه دين ولم تسانده عقيدة ولم يفرّحه ايمان .

ولمَ اذاً كل هذا فليعد الانسان الى نفسه وليكن محور حياته ولا يرضى بمحور غيره فيخلّص .

هذه صورة مصغّرة عن الحاد اليوم وعلينا الآن ان نكتشف اسباب هذا الابتعاد عن الله وهذا التحدي المقيت. انما علينا قبل ذلك: ان نحلّل من الاسباب اهمّها ، ان لا نزدري بالملحد وله صدق حياة واستقامة ضمير وصواب تفكير ، علينا ان نحترمه . ولربّما ساعدنا الملحد ان نقوّم السبل التي نسلك وان نجدّد التفكير الذي نفكّر ونبتعد عمّا يفصل في حياتنا بين الايمان والعمل . فنوحّد بينهما ، وتكون شهادتنا اقوى برهان يجعل الملحد يفكّر ونعود عن غيّه الى الطريق المستقيمة التي بدؤها الله وغايتها الله

في محبّة تنفتح ذراعيها لتُعطي . وتضمّنها في النهاية عنى من اراد بضمير صاف وارادة حيّة ووعي روحاني ان يسير على طرق الحياة . وهدفه الاستقامة وخدمة القريب والتفتيش المستمرّ عن المطلق في وجه اخيه الانسان ليجد يوماً المسيح المخلص في كنيسة ؛ وان كان اعضاؤها خطأة : تظلّ عامود نور وطريق الخلاص واحدى .

•

لم يتوقّف المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني عند ذم الالحاد والحكم عليه . وهي امور مفروغ منها اذ كان البابوان بيوس الحادي عشر وبيوس الثاني عشر قد اصدرا رسائل دينية اجتماعية تفنّد آراء الملحدين ومذاهبهم الفلسفية العقائدية وتنبذها كمغايرة للمسيح وللدين وللكنيسة وللشخص البشري بالذات . فاراد المجمع ، « في أمانته لله وللانسان ، وفي نبذه بألم وبقوّة ما بعدها قوة ؛ المبادئ الإلحادية » أن ينحني على الملحدين أنفسهم وأن يستخلص الأدلّة والبراهين التي تتركّز عليها مواقفهم وتبرّر مطاليبهم . فتكلّم على الملحدين باحترام كلّي ورحب أن يرى ، بادئ ذي بدء، في وجهة نظرهم : الصدق والاستقامة .

فمن هو الملحد ؟

ليس الملحد من اذا رفض هذا الدين أو ذاك : وآمن بوجود كائن مطلق هو بدء الخليقة وغايتها : يعود الى ضميره فيعيش حسب اوامره ونواهيه ويُخضع حياته لمقتضيات والزامات الشريعة الطبيعية التي هي في اعماق الضمير صوت الخالق . وكم من الذين لا يمارسون دينهم في البلاد المسيحية نستطيع ان نراهم من خلال هذه الصورة . فهم ، وإن لم يمارسوا دينهم ، يظلّون مؤمنين لا ملحدين .

ولكن أنستطيع أن ندعو ملحداً من لم يتساءل ابداً عن وجود الله ، وهو خال من كلّ حيرة وقلق ديني روحاني : غير آبه للدين ، وذلك امّا لقلّة اهتمام او لقلة ذكاء في الانسان وامّا لحب الاقتداء بصديق او لعدم توفّر الوقت ، اذ الحياة تمتصّ الحيوية كلها ولا تدع الإنسان يعود إلى قرارة نفسه ليتساءل ويفكّر ؟

امّا الملحد فيبر فذمّ الذي بارادة واضحة يرفض وجود الكائن المطلق، خالق الانسان وربّه. به يعيش الإنسان وإليه يعود.

وهنا السؤال الذي علينا أن نطرحه: أمن الممكن ان يرفض الانسان وجود الله. وقد قال كاتب فرنسي: وجود الله لا يتعلّق بقبول او برفض عبيده. كما أن الشمس لا تطالها الاوساخ التي تُثير. او بعبارة أخرى: ايستطيع الانسان ان يقول ان الله غير ممكن ليضمحلّ الله من الوجود وليُترك الكونُ والانسان لقوى لا يُعرف اصلها ولا تقدّر ابعادها. وبعبارة اخرى: الالحاد النظري ممكن هو؟ والانسان لا يستطيع ان يفوه بكلمة دون ان تستند تلك الكلمة الى الله لتكون في الوجود آمنة واضحة ثابتة. ولكن ما لنا وللالحاد النظري وعلينا أن نحلّل أسباب إلحاد اليوم.

*

والسبب الاوّل هو عبادة العلم ونسبيّة الحقيقة:

ينكمش الانسان على نفسه ويكتشف قوته في الابداع فيعود ويقول: لا شيء خارجاً عمّا نراه ونتحسّسه. فمن انكماشه على نفسه الى الانكماش على الكون وما فيه؛ ومن الانكماش على الكون إلى نكران وجود الله خطوة صغيرة حملت الانسان الى رفض مسبّب الكون وإلى رفض كل شرح يُعيد للكون معناه وقيمته. إنما الملحد يقول: ولِمَ كلّ تلك السؤالات؟ فهي تضيع الوقت والوقت لبنيان المدنية الحديثة ولخلاص الانسان. فلا حاجة الى السؤالات عن وجود الله؛ والعلم والاقتصاد يشرحان الانسان في كل متطلّباته ويعيدان اليه نشاطه وقوته واعتبار نفسه. فلا يخضع لآخر لا يعرفه ولا يستسلم لقوى غريبة عنه.

امّا النسبية فهي أن يقول الانسان: كيف يستطيع بشر ان يتوصّل الى الحقيقة المطلقة وهو محصور بين جدران هذا العالم؛ وهو فانٍ، وهو يتطوّر؛ فما عبَدَه وهو صغير، يرفضه في سن البلوغ. فلا حقيقة مطلقة ولا كائن مطلق انما الحقيقة نسبيّة ترافق العمل وترافق الانتاج ولا حاجة الى غير ذلك. كفى الانسان ما ينير طريقه اليوم.

*

أمّا السبب الثاني لإلحاد اليوم فهو تعلّق الانسان بالانسان. وكأني بانسان

اليوم يتعلّق بالانسان اكثر من انه ينفي وجود الله . فوجود الله يتوارى وراء اهتمام الانسان بالانسان، فيتناسى المخلوق خالقه وينساه ولا يعود أبداً لملاقاته. وقد وجد في أخيه الانسان وفي مساندته لينال ملء الثقافة والتحرّر والعلم كل ما يبتغيه على هذه الأرض. ولذا نرى الفلسفة والعلم والآداب تحصر مهمّتها بالانسان لدرجة ان العلوم اللاهوتية، تجاوباً مع تطوّر الفكر الانساني في هذه الوجهة تأخذ من الانسان بدء تفكيرها وتعود الى الله الباري والعاطي والمثيب، لتعطي للانسان ولما يصدر عنه ركيزته الأصلية والاسس التي بدونها يهوي دون رجعة.

ترنّ في آذانهم كلمات الفيلسوف الملحد جان بول سارتر : تبني الانسان اذا انكرتَ الله. وتُنكر الانسان اذا اقررت بالله. وكأن الله عدو الانسان وكأن عودة الإنسان الى الله، عودة الى ما يهدم الإنسان ويكبّل حرّيته ويستعبده ويجعله شيئاً بين الأشياء، لا ذلك الشخص الذي إذا استند إلى خالقه وجدَ الكرامة التي منبعها منه، والحرّية التي لا سند لها الاّه، وقد أراد ان يصير إنساناً ليتآخى والانسان وليعيش معه معركة الحياة في نضال مستمرّ في التفتيش عن الكمال الذي هو الله. وربما في ما سيأتي من التحليل توضيح لهذه النقطة.

ج

والسبب الثالث لإلحاد اليوم هو الفكرة الخاطئة او الصورة التي تعلّمها الملحدون عن الله او التي وجدوها في محيطهم. فبرفضهم تلك الفكرة او تلك الصورة رفضوا اله الإنجيل، اله ابراهيم واسحق ويعقوب وابا سيّدنا يسوع المسيح.

علينا ان نقف هنا متأملين مسؤولية المسيحيين في ابداء هذه الفكرة المغلوطة أو تلك الصورة المزيّفة للاله الحقيقي، الاب الذي محبته رأفته فاحبّ ان يخلق الانسان على صورته ومثاله، للصديق-الذي يرافق الانسان في ألمه، يتألم معه ويفرح معه وقد أراد الانسان كاملاً، سائراً على طريق الخلاص، يضع كل مقدراته في سبيل اخيه الانسان، يعيش معه متآخياً في ألفة وحنان ومحبة ليسير واياه الى الغاية الوحيدة، رؤيا الخالق في ابدية غبطة وفرح...

إنما علمنا الطفل صورة لا تفي بحق الله . وجعلنا الله ذلك الجبّار الذي بسيفه يناظر الانسان فيتدبّر اموره لا برفق وحنان ولكن بقساوة مآلها جهنم النار . نعم الله العادل وجهنم موجودة والمسيح الاله تكلّم مرات علينا في انجيله الكريم . اما الحياة المسيحية قبل ان تكون حياةً سلبية تُقضى في الخوف والوجل هي حياة ايجابية تُقضى مع المسيح في خدمة وعطاء . في بذل وسخاء ، في شهادة للاب السماوي وللمسيح المخلّص . وتكوّن تيّار تكاتف وحوار مجدي ليرفع المسيحي . ايّاً كان ، محيطه ويسير به الى مستوى الابوة السماوية دون ذعر او توان ودون اهمال . وهذا ما نراه في الانجيل اذ شبّه الحياة مع الله بالوليمة . والانجيل لوقا يُدعى انجيل الفرح وبولس الرسول ردّد والحّ ان الحياة مع الله فرح هي وغبطة في نور ضمير واستقامة ارادة واستمرار عطاء لا في ضغينة وحقد او في بعض العبادات وتكاثرها او في بعض الركعات والمطانيات التي لا تجدي نفعاً الّم تكن مروحنة بالروح وبالمحبة الصادقة ، بالأمانة المستمرة لخير القريب وللخير العامّ .

ولهذا يعود المجمع المسكوني فيقول ان تنقّي فكرة الله والصورة التي نبرزها للعالم ، اي ان نعود للانجيل : وكلام المسيح رب الكلام ، اذ ، كما يقول الفيلسوف باسكال : لا يتكلّم حسناً على الله الاّ الله .

ه

والسبب الرابع لإلحاد اليوم هو مشكلة الشرّ . مشكلة المشاكل . وكأن الله خلق الأبرياء ليعذبهم ، وجعل الألم في الطفل ليراقبه ويفرح ، وخلق الموت ليخيف الانسان .

مشكلة الألم حجر عثرة أمام إنسان اليوم : لمَ الغني والفقير . لمَ الفرح والحزن ، لمَ المعذّب والمتنعّم . فاذا كان الله صالحاً وعادلاً لمَ هذا التفاوت في الحياة وفي اقتسام خيرات هذه الحياة . فالمسؤولية عليه تقع واليه تعود . ولا مردّ لكلام الملحد الذي يقف مذعوراً امام شقاء وتعاسة البعض ، القسم الكبير من البشرية . ويستنتج : لا إله ولا معبود . اذ لو كان حقيقة لما سمح بهذا الشقاء وبتلك التعاسة .

ولا ينظر الملحد إلى الخطيئة التي ارتكبها ويرتكبها الإنسان بحرية تامّة ، غير آبه لما ينتج عنها من أنانية وأثرة ، من بغض وغيرة ، من تسلّط

رجور . فاذا كان الله مسبّب الخطيئة ، وهو الصالح المطلق والخير المطلق ، فحسناً يصنع الملحد بأن يرفضه وينفي وجوده . واذا كان الانسان حرّاً في توجيه حياته . حتى وفي اهانة الله ، فلمَ تجرّم الله وتتركه مسؤولا عمّا ينتج من عمل الانسان الذي به يريد ان يؤكد استقلاله عن الله وحريّته كبشر حتى وان كسر بينه وبين خالقه ، وبالتالي بينه وبين اخيه الانسان اواصر المحبة والألفة والسلام ؟

نعم . لا ننكر ان المسيحيين في أزمنة غابرة كانوا يمثّلون الله حامياً للثروة ومدافعاً عن الأغنياء . لا نُنكر أنهم اعطوا سيف النقمة لينتصر لمن يساعدون الكنيسة ويستعبدون الانسان . ولكن لم يمثّلوا هؤلاء العقيدة في صفائها ولا الدين في جماله وفعاليّته . كانت أزمنة ومضت والحمد لله . والكنيسة في كل هذه الأزمنة الغابرة كانت دوماً تدعو الجميع الى محبة صافية والى امانة كاملة ، وان غضّت النظر بين الحين والحين متسلمةً لأهواء بعض الأفراد . انما كانت دوماً تنفض الغبار عنها واعضاؤها خطأة لتعود بهم الى القداسة التي هي منبعها بقوّة من أعطاها السلطان لغفران الخطايا ولتقديس البشر ولإراحة الضمائر في عالم هي منه بمثابة الروح من الجسد .

د

السبب الخامس لإلحاد اليوم هو الآلهة الكذبة التي اختلقها الانسان على صورته ومثاله : كوّن الانسان لنفسه بعض الآلهة كمُثُلٍ يستطيع بها ان يغذي حياته وان يتفوّق على مشاكله فأعطى الرياضة والفن والوطن والعرق والجسد وغيرها من المُثُل قوّة سماوية يتوصّل البعض بواسطتها أن يعيشوا في حرارة انتباه وفي فتور ايمان أمام مشاكل هذه الحياة التي لن تتركهم بعيدين عن القلق والحيرة . كذلك الشيخ الهرم الذي بعد ان قضى الساعات يتتبع لمباراة رياضية في ريو دي جانيرو أخذ يردّد وهو قلق عند انتهائها : أستطيع الآن ان اترك هذه الأرض وقد رأيت ما كنت أريد رؤياه .

فكيف يستطيع أن يعود الى الله من لا تهمّه في هذه الارض الا المباريات الرياضية او جمال الأجساد او حمامات البحر ... ونفسه لا تعرف

الى اعلى أو هو الذي يُخمد ترقّ نفسه الذي لا يُعَدّ ويذرّه بالرماد لتبدّدته الى ان يزبل ويدخل في سبات عميق.

والله بعيد عن الحسّيات وافراحه قلبية لا تُرى. وافراح هذا العالم حسّية منظورة قريبة. والانسان ضعيف. فكيف لا تضعف إرادته وتفتر عزيمته أمام ما يقدّمه له الكون من جمال ولذّة فيفضلها على ما يعطيه الله والايمان به في اعماق ارادة وطيّات قلب قال عنه اغسطينس : خلقت قلبنا يا الله وسيظلّ حائرًا الى ان يثبت فيك.

•

هناك سبب سادس؛ الا وهو البيئة التي نعيش فيها. فالتمدن اليوم وان لم يكن مرذولاً في أسسه، فانه يرتكز تماماً إلى الأرضيات. وهذه الأرضيات تجعل صعباً التقرّب الى الله.

التمدّن الحديث الذي نعيشه ؛ وكل منا يعلم ذلك ؛ يحصر اهتمام الانسان بما يتعلّق بالانسان نفسه ؛ بحياته الارضية من اكل وكساء وجمع مال وكسب الفوائد الكبرى والاقتصاد والمصانع والرفاهية البيتية الى ما هنالك من ضروب الجهالات التي تبهر قلب الانسان وتجعله يلتصق بالارض فلا يعود يعرف لون السماء . وهو ، وأظنّه هكذا ؛ وهو ؛ ولست بنبيّ ، وهو في هذه المغريات سيغوص ؛ وستكون له سهلة المنال « وبكبسة زر » يُعطى له ما يريد من بارد وحارّ ومن ضروب الراحة إلى ان يشعر في قرارة نفسه أنه استُعبد للمادة وانه اكبر منها؛ فيعود يصعد سلّم التفكير والتأمّل ليستعيد بين وفرة الحسّيات كرامة نفسه وقيمة انسانيته، ليكون ويظلّ ملك الأرض ومحور الكون لا عبدَه . فيقترب إذاك إلى الله وتكبر بينه وبين خالقه المودّة الخالصة ويصير إلى ازدياد إلى ان يختبر عظمة الخالق وتفاهة الخليقة.

•

واخيراً السبب السابع ، حياة المؤمنين سبب من اسباب الحاد اليوم وهذا ما يكوّن لنا مشكلة عويصة إن انتبهنا .

ايمان المؤمن ، ولا أظنّكم ترفضون لي ما سأقول ، التزام في بنيان الكون وفي تجديد العالم وفي تكوين ما ليس موجوداً بعد . فمستقبل الكنيسة ليس في أن تظلّ سلبية بلا حراك . كوّن المسيح الاله كنيسته (والمؤمنون كلّهم هم

الكنيسة) لتنمو ، لتظل في حركة مستمرة . فهي تتوق الى المستقبل كما انها تتوق الى الماضي حيث اساسها وبدء حياتها .

نسمع اليوم وسمعنا في الاشهر الماضية يوم قام انقلاب يطالبون بتجديد في لبنان وخارج لبنان أنه يجب ان يولد عالم جديد . والامور هكذا فكيف يستطيع المؤمن وهو الذي قرأ وطالع كلمة المسيح في الانجيل انه ولد من عل : كيف يستطيع رفض التكاتف في سبيل بنيان الارض الجديدة . وليكن عضواً فعّالاً في تجديد العالم، عليه ان يعيش هذا التجديد في صميم قلبه وحياته اولاً .

ولكن ، ويا للأسف ، ولكن المؤمن اذا لم يواظب على تربية ايمانه وازدهاره ونموّه ، اذا تغاضى عن ابراز ايمانه بالصورة اللائقة بالخالق والمخلّص ، واذا تكاسل في حياته الايمانية وفتر في الايمان وفي الاخلاق وانزلقت به الرجل الى مهاوي الرذيلة ، واذا لم يعش مع مجتمعه آلامه وافراحه ، عذابه وموته، وصدّ قلبه عن العطف والحنان وساعد على ان يتأجّ الفقر وتخف وطأة التفرقة بين الطبقات الإجتماعية :

اذا تغاضى عن كل هذا واغمض العين كي لا ترى ما يجب ان يحرّك فيه شواعر الانسان نحو أخيه الانسان، فهو يسدل الستار الكثيف على وجه الله وعلى الدين ولا يشهد لإيمان هو فيه كلام وشكليات ليس الاّ .

عظيمة اذاً هي مسؤولية المؤمن في عالم اليوم . فلا يكفي حضور القداس ولا الركوع ولا التبرك بالماء المبارك ولا أكل جسد الرب ولا تلاوة المسبحة ولا الصوم ولا الجلد ولا ... ولا ... انْ لم يكن المسيح حيّاً في حياتنا ، في التفكير والعمل ، في العقل والارادة ، في اللسان والاحكام ، في المعاطاة مع الناس ، وبكلمة واحدة : انْ لم يكن المسيح الالف والباء في كلامنا وحياتنا العملية ، في الخلوة والمجتمع ، في الظاهر والباطن وهو يتمجّد كما يقول القديس ايريناوس بان يحيا الانسان تلك الحياة العميقة التي تبدّل وتغيّر ، التي تبرّر وتنقي لتزدهر وتزداد .

فكم من وثنيّ خارج الكنيسة يقول اغسطينس ، سيخلص . وكم من مؤمن داخل الكنيسة سيُدان لانه عرف ما هو النور وفضّل الظلمة على النور .

وكم في اختباركم وفي اختباري نستطيع أن ندلّل على هذا وذاك من الذين تركوا الكنيسة ويعيشون وكأنّهم لم يعتمدوا بدم المسيح من جرّاء هذا الكاهن الذي ليست حياته كينونيّة صادقة ؛ او من جرّاء هذا أو ذاك هذه او تلك من الرجال او النساء ممّن يقومون ببعض الواجبات الدينية وحياتهم بعيدة كل البعد عن المحبة في اللسان والأحكام وفي المجتمع وعمل الخير ومحبة القريب وصفاء النيّة في البيع والشراء وفي كل مظاهر الحياة : يأخذون الدين مطيّة ولا ايمان لهم . يأخذون الدين كظاهرة اجتماعية لا بدّ منها : يستحون ان لا يقوموا بواجبها امام الغير ولا يأبهون لروح تروحن اعمالهم وتجعلها على مستوى المظاهر الدينية . فالدين شكليات والايمان محبة. فالدين الذي يتفاعل بالايمان ظلّ حركات خارجية فارغة مضلّة ومضلّلة . فالمسيح هو هو من نؤمن به وهو من يروحن الدين ويوفّق ويؤالف بين الدين والايمان.

•

هذا بعض الشيء من الأسباب التي تسهّل الالحاد . فما هو الدواء . اتينا على ذكر الدواء ونحن نحلل الاسباب تلك . انما علينا ان نتوسّع بهذا.

•

يتوقع المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني ان يكون هذا الدواء في عرض العقيدة المسيحيّة عرضاً وافياً صادقاً من جهة ، ومن جهة ثانية في طهارة حياة الكنيسة وحياة اعضائها .

الكنيسة مسؤولة في أن يرى من خلالها وهي تتجدد بالروح القدس وبتوجيهه كل من ينظر اليها وجه الآب السماوي بكل ما فيه من عطف وابوّة وحنان ومحبّة ؛ ووجه الابن المخلّص يسوع الذي اراد ان يتأنس ليكون واحداً من جمهور البشر ، ويكون وحدتهم ايضاً حسب كلمة القديس ايرناوس : اتى ابن الله وتجسّد وأتانا بكل تجديد . او حسب كلمة اغسطينس : ليس المسيح واحداً من بني البشر فحسب انما هو الذي يوحّدهم ويجمعهم وهو الإله المتأنس .

فالكنيسة اذاً بحياتها تجعل الآب حاضراً . بغيرتها الرسولية على الجميع دون تفرقة تجعله وكأنه ظاهر بين مخلوقاته . بتضحيتها في سبيل الفقير

والمعوزين تجعل المسيح حياً كما كان في حياته التاريخية يحبّ العشّارين والفقراء ويرنو الى من بهم حاجة .

ولكن حضور الله الآب والابن المخلّص يكون فعّالا حقاً وواضحاً اذا ما اتحد المسيحيون قلباً واحداً وارادةً واحدة وهدفاً واحداً ليُظهروا من خلال وحدتهم الايمان الانجيلي . ومن خلال المحبّة الصافية : التي تجمعهم وتجعلهم يتفوّقون على اسباب التفرقة ، سياسيّة كانت أو اجتماعيّة أو فلسفيّة : فعالية كلام المسيح الذي يُحيي ولا يُميت ، الذي وان بتر كل ما هو من الانسان العتيق أعاد الصفاء والحياة الحقة لتكوين الإنسان الجديد المجدّد .

انما هنالك مشكلتان يتورّط فيها الملحد فيتساءل اولاً : الايمان بالله يضعف الانسان . وثانياً التفكير بالموت وبما بعد الموت يجعل الانسان يهجر الارض ليعيش في عزلة تختنق فيه كل مقدرات طبيعية .

ولكن أيجوز لنا ان نقول ان الايمان بالله يقتل إنسانيتنا ويقلّل من كرامتنا ويستعبد حريّتنا ويربطُها بأغلال ؟ كيف ذلك وكرامة الانسان من الله : تستند اليه وتتأصّل فيه وهو كمالها . كيف يُعقل ان الله الذي خلق الانسان محبّة ، يهزأ به لدرجة انه يستعبده ويعرقل مسعاه ؟ انما الله يصدّ الانسان مرّات لكي لا يخسر حريّته في توافه الارض وقد جعله الله له : لا يريده آكلاً خرنوب الخنازير ولكن خبز الحياة والخلاص الذي يوجّه حريته نحو الداخل ، والى الفضائل التي تبني الحرية وتجعلها لا تنساق الى اهوائها ، والحرية ، على ما نعلم كلنا : ليست ان نعمل ما نريد ولكن ان نوجّه مقدراتنا كلّها الى الخير الاعظم حيث الخلاص والغبطة .

امّا ان يهجر المسيحي الارض اذا ما اهتمّ بالآخرة وما اليها : ففي الأمر نظر . كثيرون يؤخذون بهذا التفكير : فأما الارض وامّا السماء . ولكن ما هي السماء : أن نبني الخير والصلاح على هذه الارض ونجرّب ان تكون الأرض بواسطة الحياة المسيحية ارضاً جديدة فيها محبّة المسيح والألفة بين البشر والسير يداً واحدة نحو الغاية المتوخّاة : وهي ان نكون جميعُنا في رؤيا الله ابديّة الازمان التي لا نهاية لها . ولذا فالكنيسة تحث ابناءها الى ان يسهموا في بنيان الكون ، وأن يتعاطوا قدر المستطاع الاعمال الدنيوية التي هي لخير الانسان ، وان يقيموا بنشاطات اجتماعية مآلها الخير

انعام ؛ وان يدخلوا في المؤسسات الدوليّة (ثقافية كانت ام اجتماعية او صحية) فيبثّون فيها روح المسيح ويُسهمون في خدمة اوسع وفعالية اكبر.

والمسيح الاله اعطى المثل اذ تجسّد في ارض معيّنة وفي شعب معيّن وخدم ارضاً معروفة وطلب الى جميع المؤمنين به ان يحبّوا بعضهم بعضاً في صفاء نيّة وفي خدمة نصوح. وعلى المسيحي اذاً ان يقتدي بمعلّمه فيتجسّد في محيطه وفي بيته وفي مهنته ويعطي فيها الروح الطيبة والمثل الخيّر.

وفي هذا المضمار فالكنيسة تطلب الى ابنائها ان يسهموا مع غير المؤمنين في بنيان الكون ، وان يشتركوا معهم في تحسين الاوضاع الاجتماعية وفي إحقاق العدالة الاجتماعية التي طالما تألّم الفقير والعامل من فقدانها في حياته اليومية. فيكون المسيحي المؤمن في تكاتفه والحوار الذي يدور بينه وبين غير المؤمنين ، ذلك الذي بحكمة ووداعة يخدم الأرض وهو مؤمن حقاً ان الارض تزول وتتجدّد دوماً. وان زالت يوماً لتتجدّد حتماً ففيها يبني الانسان حياةً تكون حياةً انسانية زاهية سليمة أمينة تقوده الى التفكير بالله وبالروحيّات وتحمله على إحقاق القيم السماوية في نسيج عمله اليومي : في أرض هي سكنى القداسة لمن يريد وطريق الى الله لمن احبّ.

وان بادر المسيحي الى هذا الحوار والتكاتف فلن يقف عند غير المؤمنين انما يتعدّاهم ويُقيم حواره حتى مع مضطهدي الكنيسة : فبين غير المؤمنين اناس يقدرون القيم الروحية ويريدون خير المجتمع والانسان. وبين مضطهدي الكنيسة ربما وجد من باستقامة نيّة وصفاء ضمير يحارب الكنيسة لا لأنها مؤسسة دينية روحية ولكن لأنها لم تعط — وفي هذا قلة معرفة او جهل او تجاهل — ما كان عليها ان تعطيه في خدمة الانسان كانسان دون تفرقة بين غني او فقير.

على ان هذا التكاتف والحوار يجب أن يتمّا بفطنة وحكمة كي لا يغرب عن عقل المسيحي كل ما في الالحاد من مرارة عقائدية وتنكّر لخالق القيم ولرب الكون والانسان.

وما هذا التشجيع الذي تبديه الكنيسة لابنائها سوى انها ترى في من يقفون بوجهها سنداً لها في تطهير نفسها وفي عودة الى الباطن لتستوعب اكثر

فاكثر معنى كلام المسيح وعظمة رسالتها. فهم ذا كمحك يوقظ ضميرها لتتمحص من جديد وبعمق اكبر اساساتها وجوابها على ارادة المسيح الواضحة: ولكي نرى اذا ما كان في مواقفها التاريخية او الراهنة سبب لشك او سبب لابتعاد البعض عن المسيح. وهي هكذا فانها تطلب من غير المؤمنين ان يعودوا الى انفسهم ليدرسوا انجيل الرب باستقامة وبدون احكام سابقة فيرون فيه ما يطمحون اليه، ويصير الله: في نظرهم: لا ذلك الذي رذلوه في المتحف ووصفوه بان لا قيمة له ولا منفعة: بل وانه مضر: يصير في نظرهم ذلك الذي حتمه محبته الى الانسان فاحبه وجعل سكناه مع بني البشر فاراد ان يحررهم من عبودية الخطيئة ويعطيهم فرح الضمير وسرور القلب: يدعوهم جميعاً الى الخير والكمال في هذه الدنيا ليتم الهدف الوحيد اللائق بخليقة الله: ان يجتمع البشر كلهم في وحدة متراصة معه ومع المخلص ومع الروح القدس.

الختام

المسيحي مدعو الى عمل نور وشجاعة. فهو نور العالم، وملح الارض والخميرة في العجين: حسب كلام المسيح الاله. فاذا كان يعود للسلطة الكنسية ان تعلم وتفسر بصورة صادقة المبادئ الدينية والاخلاقية: فان مسؤولية المسيحي هي في ان يبادر في بث الروح المسيحية في العقلية الراهنة وفي الحياة اليومية، في القوانين وفي المجتمع.

هناك تبديلات لا بد منها واصلاحات ضرورية يفرضها الزمن وتطوير العقليات: على المسيحي ان ينفخ فيها روح الانجيل. ففي هذا الخير والتطور الصادق كي لا تستعبد الاصلاحات المقيدة انسان اليوم كما استعبد في الماضي، كي لا يتكون بعض الاجحاف ويصير الانسان إلى الخراب. فثورة الانجيل ليست ثورة القوة والعنف الوثني، لكنها ثورة المحبة تمثلاً بالمسيح: ثورة تريد عالماً أكثر إنسانية، ثورة تكون مجتمع اشخاص حرة ومتكاتفين في المسؤولية حيث كل واحد يشعر بانه محبوب وساند كقريبه وأخيه.

ففي هذا المجتمع الراهن المتبدّل تكمّل الكنيسة عمل الخلاص. فلا فرق ولا وحدة بين ملكوت المسيح وتقدم الانسان، بينهما تداخل لا يرى قيمته الاّ الايمان. في عالم يهدّده افتقار عقلي وأخلاقي وروحي، حيث الانسان يشعر بانعزال بين جمهور البشر وكأنه لا يُحدّ إلاّ باتجاه وسدّ حاجاته المعيشيّة. فان البشارة الانجيلية تردّد صدى الأمل والرجاء: الانسان ليس في عزلة «لأن المسيح خلّص البشر كلّهم ووحّد في نفسه الخليقة كلّها. فهو غاية التاريخ البشري: اليه تجتمع كل اشواق التاريخ والتمدّن. فيه محور الجنس البشري وفرح القلوب كلّها وملء تمنياتها جميعها». وهذه الكلمات الأخيرة هي كلمات الدستور الراعوي في الكنيسة وعالم اليوم الذي يُعدّ من اجمل ما اعطاه المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني لإنسان اليوم.

ففي تبديلات الأزمنة تَلدُ الكنيسة الإنسان الجديد الذي خُلق على مثال الله في البرّ وقداسة الحق (افسس ٤/٢٤) ويعمل المسيحي المؤمن، بحياته وتفكيره ومعاطاته مع البشر، على خلق الأجواء المسيحية الصافية التي يستقيها كل يوم بعودته الى المسيح نور ضميره والحقيقة التي لا تعلوها حقيقة فيتجدد باستمرار ليجدّد كل ما له به صلة في حياته اليومية.

وهذا ما يساعده على ان يميّز في تبديلات عصرنا الراهن الأبعاد الانسانية والمعاني الروحية ومتطلّبات إنسان اليوم بحكمة وفطنة وتفتّح وفيه ترقّ الى إنضاج المجتمع العتيد، متأمّلاً كلام المجمع الذي وجّهه إلى الشبيبة يوم كان ملتئماً: «إنكم ستخلّصون مع المجتمع هذا او ستهلكون معه». وقد زادهم يستحث هممهم قائلاً: ابنوا بفرح وتهلّل عالماً احسن من الذي بنوه اجدادكم». وليس لي كلمة انهي بها هذا المقال أصفى من كلام كهذا فيه روعة المعاني وعمق التفكير.